

صفحة تصغر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

مفهوم (العدالة) في الفكر الاجتماعي (من حمورابي الى ماركس)

فارس كمال نظمي

الصعب على الناس أن يلزموا أنفسهم بمتابعة السلوك الاجتماعي المنظم. يستدل من هذه التعريفات الموجزة، أن للعدالة مضامين دينية وفلسفية واجتماعية متنوعة، تتطلب فرأ أكاديمياً متأنياً ودقيقاً لها على نحو متسلسل، وهو ما سيضمنه الجزء القادم من هذه الدراسة.

تنبثق من الأشياء بحد ذاتها. ويشير ((الاعتقاد بعدالة الاجتماعي)) الى وظيفة نفسية تكيفية بالغة الأهمية، تمكن الفرد من مواجهة بيئته المادية والاجتماعية كما لو أنها مستقرة ومنظمة. وبدون هذا الاعتقاد يصبح من

في علم النفس، يستخدم مصطلح ((العدالة الاجتماعية)) لوصف شعور معظم الناس بوجوب أن ينال الجميع استحقاقهم على أساس حاجاتهم وجهودهم. أما ((العدالة المتأصلة)) Justice وتشير ((عدالة التبادل)) Commulative Justice الى تلك العلاقات التعاقدية التي تلزم كل فرد أن يعطي غير حقه كاملاً دون التفاضل بقيمته الشخصية أو مكانته الاجتماعية، بينما تحكم ((العدالة التوزيعية)) Distributive Justice توزيع المكافآت وتعيين العقوبات، أي تحدد استحقاقات الفرد من مكافأة أو قصاص. وتعني ((العدالة الاجتماعية)) Social Justice نوعاً من المساواة له أهميته الجوهرية في تحقيق الصالح العام. وتتمثل ((العدالة السياسية)) في وجود دستور يضمن توزيع الحرية السياسية والمساواة الاجتماعية والحقوق الطبيعية. أما ((العدالة الاقتصادية)) فتتحقق إذا ما نجح النظام الاقتصادي في إشراك جميع الأفراد في الحياة الاقتصادية، وفي توزيع الثروة عليهم بنسب تتناسب مع مساهماتهم في الإنتاج العام. وتتوخى ((العدالة الجنائية)) الدفاع عن المجتمع ضد الجريمة، وفي الوقت نفسه تقويم سلوك الجاني الذي خرج عن إطار المجتمع، مع ضمانها لحق كل منهم في أن يتمتع بمحاكمة تتيح له الحق الكامل في الدفاع عن نفسه حتى تنتهي المحاكمة إلى قرار سليم سواء بالإدانة أم بالبراءة. ويشيع أيضاً مصطلح ((العدالة المطلقة)) أو ((الإنصاف)) Equity بوصفها عدلاً طبيعياً لاشرعياً. فالإنصاف يوجب الحكم على الأشياء بحسب روح القانون، أما العدل فيوجب الحكم عليها بحسب نص القانون .

مجتمعه، سميت عندها العدالة ((العدالة الاتصاقية)) Conventional Justice .

مستخدماً في ذلك كل وسائله، ومنها ابسط انفاظه وأعمق أفكاره على حد سواء. لكن هذا المعيار ظل منيعاً على التحديد او الاتفاق. وتولى الحكم خلال المدة (1792-1750) ق. م. في مقدمة شريعته: ((ان الالهة أرسلته ليوطد العدل في الأرض، وليزيل الشر والفساد بين البشر، ولينهي استعباد القوي للضعيف، ولكي يعلو العدل كالشمس، وينير البلاد من اجل خير البشر، ويجعل الخير فيضا وكثرة)) . فأضحى الناس منذ ذلك العصر يشعرون ان العدالة حق مشروع لا منة شخصية. إلا ان هذا الرأي عن كون العدالة شيئاً من حق كل إنسان، كان لا بد ان يناقش نظرة الناس آنذاك الى الدنيا، فبرزت الى الوجود مشكلات أساسية، كتبرير الموت، ومشكلة الإنسان الطبيعى والأخلاقي. ويذهب البعض مناهياً متفانلاً بقولهم ان الطبيعة البشرية قد ارتقت عبر التاريخ، مما خلق لدى الإنسان نوعاً من الرقابة الذاتية التي تلزمه باحترام قاعدة: ((عامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعاملوك به)). ومن ثم أصبح يمتلك شعوراً داخلياً بالعدل. ويتبنى آخرون موقفاً نسبياً بقولهم ان العدالة ما هي إلا تجل لتفوق الأقوياء في أي زمان. فالأفراد الأكثر قوة يصبحون أكثر نجاحاً، وفي النهاية يقنعون أنفسهم والآخرين بأن وسائلهم في تحقيق الأرباح والمحافظة على مكانتهم ليست مقبولة فحسب، ولكنها مرغوبة وأخلاقية وعادلة أيضاً.

ويُنظر الى العدالة من منظورات فلسفية واجتماعية مختلفة. فهناك العدالة العقلية، وهناك العدالة الطبيعية على فكرة ((الحق)) Right. وهناك العدالة القائمة على فكرة ((الخير)) Good. وإذا كان تحقيق مفهوم ((إعطاء كل ذي حق حقه)) يقوم على فكرة أن استحقاق الإنسان لحقه يعود لمجرد كونه إنساناً، سميت عندها العدالة ((العدالة الطبيعية)) Natural Justice. أما إذا كان استحقاق الإنسان لحقه يقوم على قاعدة عامة يقبلها ينشأ العدالة في كل زمان،

الثروة الاجتماعية في كثير من الحالات زيادة فقر الإنسان. العدالة في العراف القديم وجدت العدالة منذ اقدم العصور رموزاً لها في الاساطير والشعر والتحت والعمارة، بوصفها مطلباً جوهرياً يثير بشكل صراخ او صامت أي إنسان على أساس قوة وجوده، ويعبر في الوقت ذاته عن الشكل الذي يتحقق في إطاره ذلك الإنسان. فمن الناحية التاريخية، يعد إنسان وادي الرافدين أقدم مشرعى إحكام العدالة، إذ أن الشرائع العراقية القديمة تسبق اقدم ما هو معروف من شرائع وقوانين في سائر الحضارات الأخرى كالفرونية والأغريقية والرومانية بعشرات القرون. فقد وضع الإنسان العراقي الآخرى كالفرونية والأغريقية والظلم في صميم نظريته للآلهة والكون والإنسان. فارتبطت العدالة بالظلم مثلما ارتبطت قيم الخير كلها به، ولأن إنسان وادي الرافدين أدرك علاقة الشمس بنشاطات الحياة المختلفة، فقد عدّها لها للحق والعدل، ومزيلاً للغموض، وكاشفاً للحقائق. فإله العدالة هو إله المعرفة نفسه. فكان العراقيون يحتفلون في العشرين من كل شهر بعيد مكرس لإله العدالة ((شمش)) الذي انجب ولدين هما ((كيتو)) و((ميتسارو))، أي العدالة والحق.

لكن العدالة بهذا المفهوم ظلت امراً مرهوناً بخدمة الإنسان للآلهة وإرضائه لها فقط. فإذا ما حصل على العدالة فذلك لأن الآلهة منّت عليه بذلك، لا لأنه يستحقها. أما فكرة ((ان العدالة شيء من حق كل إنسان)) فلم تأخذ بالتبلور البطيء الا في الألف الثاني قبل الميلاد، وهو الألف الذي ظهرت فيه شرائع ((حمورابي))، إذ يذكر هذا الملك البابلي، الذي



مسلة حمورابي

هل تختلف المرأة نفسياً عن الرجل؟

* د. منال القاضي

هل تختلف نفسية المرأة عن نفسية الرجل؟ وفي أي شيء تختلف؟ وما هو سبب إصابة المرأة ببعض الأمراض النفسية أكثر من الرجال؟ وهل يوجد اختلاف تشريحي بين مخ المرأة ومخ الرجل؟ ربما تكون هذه هي البداية المناسبة، فمخ الرجل يحتوي على ضعف الخلايا العصبية الموجودة في مخ المرأة، وفي المقابل فالمرأة لديها ضعف الوصلات العصبية التي لدى الرجل، ولذلك فالأولاد أكثر إصابة من البنات بالتخلف العقلي وصعوبات التعلم، ذلك لأن الجنين الذكر في حاضه أن يبقى على عدد أكبر من الخلايا العصبية في القشرة المخية أكثر من الجنين الأنثى، فأي عطب يصيب المخ يؤدي إلى فقدان خلايا عصبية هو بحاجة إليها. أما بالنسبة لمرض مثل الاكتئاب، فقد وجد أن المرأة أكثر إصابة به من الرجل لأن الموصل العصبي المسؤول عن المزاج الذي يسمى (السيروتونين) يصنع بنسبة أقل في مخ المرأة. كما تختلف الأعراض الاكتئابية بين الرجل والمرأة، فتعبر المرأة عن اكتئابها في صورة أعراض جسمانية مثل الشعور بالإرهاق واضطرابات الشهية والنوم؛ بينما يتوقف الرجل الذي يعاني من الاكتئاب عن العمل ويبتعد عن النشاطات الاجتماعية. وبالنسبة لمرض الفصام فقد وجد أن هرمون (الاستروجين) له أثر فعال في حماية الخلايا العصبية في المخ مما يؤخر ظهور مرض الفصام عند المرأة، كما أنه يقلل من أعراض المرض لديها. كما وجد أن تأثير الدواء يختلف من المرأة إلى الرجل.

كذلك أثبت العديد من الدراسات أن المرأة التي تعاني من الفصام تستجيب أسرع لعظم الأدوية الأخرى المستخدمة في علاج هذا المرض ويجرعات أقل من التي يحتاجها الرجل، كما أن الأعراض الجانبية تختلف من الرجل إلى المرأة. وبالمثل فالمرأة أكثر إصابة بالزهايمر من الرجل، فقد أثبتت الدراسات أن (الاستروجين) يحمي المرأة من تدهور الوظائف المعرفية المصاحبة لكبر السن. وما زالت الدراسات تحاول أن تثبت العلاقة بين الزهايمر وانحدار الاستروجين الذي يتبع انقطاع الدورة الشهرية، وقد وجد أن الاستروجين دورا في حماية مخ المرأة، فالاستروجين يدعم نمو الوصلات العصبية في المنطقة الخاصة بالذاكرة في المخ، كما أنه ينشط إنتاج النواقل العصبية التي تقلل في حالة الإصابة بمرض الزهايمر مثل الأستيل كولين والسيروتونين. كما يؤدي الاستروجين إلى تدفق الدم في المخ، ويعد الاستروجين مضادا للأكسدة ويحمي المخ من الشوارد الحرة التي تلعب دورا في حدوث مرض الزهايمر.

الجينوم البشري والأمراض النفسية والعقلية

د. الهام خطاب عبد الله

التيبؤ البشري القائلة بضرورة النظر إلى الفرد باعتباره جزءاً من نظام كلي وأن صحته تعتمد على كثير من العوامل الخارجية. فقد أكد (توفلر) في دراساته عن أثر التغيير في صحة الفرد عبر ما أسماه (صدمة المستقبل): ((ان التغيير السريع في البيئة يؤدي الى عمليات سحب متكررة من موارد الطاقة في الجسم، وبالتالي الى زيادة في تمثيل الدهون وهذا بدوره يخلق صعوبات خطيرة لبعض مرضى السكر. وحتى البرد العادي اثبت انه يثاثر بمعدل التغيير في البيئة. وبإختصار لو فهمنا سلسلة الاحداث البيولوجية التي يثيرها ما نبذل من جهد في التكيف مع التغيير والجدّة، فسنبدا في تهم سر الارتباط الوثيق بين التغيير والصحة)). ومن هنا ظهرت بشكل واضح نظرية السايكوماتك (الامراض النفسية – الجسمية) التي تقوم على ان الاجهاد التكيفي النفسي يقتضي ثمناً فسيولوجياً بدنياً غالباً، وأساسها الطبي يقوم على أساس ان الجسم الحي يقترن بمقادير معينة من البروتينات السامة التي تهدم خلايا البدن وتضمّر عمل انسجته. وأمام تكاثر البروتينات السامة يفرز البدن مادة مضادة لمقاومتها، فإذا كان مزاج الانسان طبيعياً فإن المادة المولدة المضادة تهزم المادة السامة مولدة الضد وتقوي من مناعة البدن، اما اذا كان المزاج متعكراً فإن المادة السامة تتغلب على المادة المضادة وترسب في أغشية المفاصل مسببة بعض الالتهابات. ومن هنا تبدأ أولى أعراض المرض، ثم يأخذ بالاستشراف على قدر المادّة السامة المضرّة. ولقد اكدت التجارب ان امراض الروماتزم تحدث أثر الأزمات النفسية القوية حيث يتضاعف افراز مادة (موند الضد) السامة فيتأثر كل من العمود الفقري والعضلات مباشرة، ويخيل عندئذ للمريض أنصابته جسدية فقط، بينما الواقع هو ان العارض جسدي يعد نتيجة طبيعية لتدهور الحالات النفسية الناشئة عن الكآبة والأرهاق اليومي المتواصل. على ان هذه التفسيرات للأمراض

الزكام الواسع الانتشار، فإن سببه هو العدوى، ولذا فاصله البيئة، ووجب على الإنسان أن لا يتعرض لمخيط فيه فيروس الزكام كي لا يصاب به، ولا يخرب عن البال أن من يتعرض لهذا المرض يجب أن تكون له الجينات البشرية الخاصة، وذلك لأن من المعروف أن القطط والجرذان والذباب لا تصاب بالزكام عندما تعرضها لهذا الفيروس، وعلاوة على ذلك فبعض الناس أكثر تأثراً بهذا الفيروس من غيرهم .

ولكن هذه الخريطة المتوازنة عادت من جديد للتغيير في النصف الثاني من القرن العشرين بعد اكتشاف الأمراض السايكوسوماتية المرتبطة أساساً بتغيرات البيئة التي تخلق ما يسمى بأمراض العصر، وبعد الفقرة الكبيرة التي حققتها علوم البيولوجيا باكتشاف السلم الحلزوني الوراثي (د ن أ)، وأخيراً باكتشاف خريطة الجينوم في الجسم البشري. فما الذي حصل؟ إن الطب اليوم أعيد العيد الأهمية اللازمة للعوامل البيئية في إطار نظرية جديدة تسمى علم التيبؤ البشري . Ecology humaine .

فأصحاب البيئة يرجعون الأمراض إلى البيئة وتغيراتها، وإلى الفيروسات والعدوى التي تحملها، وإلى طبيعة الغذاء والهواء والماء، وإلى الطبيعة الخارجية عموماً التي يعيش فيها الإنسان، وإلى عدم قدرة الجسم على التكيف المطلوب مع معطيات البيئة؛ حتى وجد اليوم علم جديد يدعى علم ((التيبؤ البشري)) قائم على هذه المعطيات. أما أصحاب الوراثة والجينات الوراثية، فيرونون الأمراض إلى كونها أمراضاً وراثية مدفونة في جينات الجسم، وبمجرد أن تجد لها الوقت والظرف المناسب تظهر على السطح على شكل مرض. فقد وجدوا حتى الآن أكثر من ثلاثة آلاف مرض وراثي لدى الإنسان، وأخذوا يحاولون أن يعالجوا هذه الأمراض عبر الهندسة الوراثية في المراحل الأولى للجنين وهو في رحم أمه.

فإن هي الحقيقة في هذه الخريطة؟ إن صفاتك كما كان يقول البيولوجيون في النصف الأول من القرن العشرين، إنما هي نتيجة تفاعلات متداخلة بين مجموع صفاتك الوراثية الخاصة وبين المحيط والبيئة. إذن، فعلماء البيولوجيا عادوا في النصف الأول من القرن العشرين للأعتبار عملية التوازن بين الجين والبيئة. وخير مثل يضرب على ذلك هو مرض

إن المرض النفسي يختلف عن غيره من الأمراض في أن له العديد من الأسباب التي لا يمكن الفصل بينها أو تحديدها أيها هو السبب الأساسي، فإضافة إلى الأسباب الجينية والبيولوجية هناك الأسباب الاجتماعية التي تؤثر بشكل مختلف في المرأة، فالتغيرات التي يراها المجتمع طبيعياً من الممكن أن تؤدي في ضغوط عصبية على المرأة. فالزواج مثلاً يختلف أثره في كل من الرجل والمرأة، فهناك العديد من الدراسات التي اثبتت زيادة الأمراض النفسية بين النساء المتزوجات مقارنة بالرجال المتزوجين، بينما تقل نسبة الأمراض النفسية بين النساء غير المتزوجات مقارنة بالرجال غير المتزوجين، مما يدل على أن الكثير من النساء يفقدن الاستقلالية بالزواج. ومؤخراً دار الحديث حول تأنيث الفخر حيث تمثّل النساء (٩٠٪) من فقراء العالم مما يضاعف أعباءها النفسية، ولذلك إذا تكلمنا عن صحة المرأة النفسية يجب أن تؤمن لها حقوقها الإنسانية. فالمرأة لها الحق في مستوى معيشي جيد، يتوفر فيه المأكل والملبس والسكن والمياه النقية والبيئة الصحية الآمنة، وكذلك لها الحق في التعلم الجيد والعمل المناسب والأجر المساوي للرجل والمساواة بينها وبين الرجل في المسؤوليات الخاصة بتنشئة الأطفال، وكذلك حقها في التأمّن الاجتماعي ضد البطالة والشيخوخة والمرض.

إن فقر المرأة ليس أمراً شخصياً يخصها وحدها ولكنه مرض اجتماعي خطير، يمتد أثره على المجتمع بأسره. فالمرأة الفقيرة تعني طفلاً فقيراً يعاني من سوء التغذية والإعاقة والتدهور الدراسي والتسرب المبكر من التعليم والإصابة بالأمراض المعدية والاضطرابات النفسية المختلفة وارتفاع معدل الجريمة. كما أن المرأة الفقيرة التي تحيا في بيئة غير صحية تعاني من العديد من الأمراض بالعدوى وسوء التغذية والصداق والتوتر وعدم القدرة على التركيز، وبالمثل يتسبب الفقر في العديد من الأمراض النفسية كالإكتئاب واضطراب الوسواس القهري والعنف والقلق وسوء الاستغلال الجسدي والعاطفي. كما تتناهبين مشاعر سلبية عديدة مثل الغضب والعدوانية وقلة الحيلة.

والفقر يقلل من أثر المساندة الاجتماعية التي تحصل عليها المرأة، فحيران ومعارف المرأة الفقيرة يقعون أنفسهم تحت تأثير الفقر مما يضاعف الضغوط العصبية الواقعة عليها. إن الاهتمام بالصحة النفسية للمرأة يوازي في أهميته الاهتمام باستقبال الوطن، فهي إنسان قبل أي شيء وانتهاك حقوقها هو بمثابة انتهاك صريح لحقوق الإنسان. * أدبية وطبيبة نفسية مصرية